استدعاء الشخصيات الدينية:

تعد الشخصية التراثية بشكل عام، والشخصية الدينية بشكل خاص، إحدى الأدوات والتقنيات الفنية التي يلجأ إليها الشاعر، ليتخذ منها الصوت الذي يعبر من خلاله أو به عن جملة من القضايا والأفكار والرؤى، التي تشغل حيزا كبيرا من اهتماماته وتفكيره. وهكذا تحولت أو أصبحت الشخصية وسيلة هامة ((تمنح الشاعر مجالا للتعبير، ليفصح عن خواطره وفق توجه فني يبعد القصيدة عن المباشرة والسطحية من جهة، وينأى بالشاعر عن أن يكون عرضة للأذى و الملاحقة من جهة أخرى)) [1] كما أن هذا الأسلوب يفتح له أيضا آفاقا جديدة لتطوير أدواته الفنية ووسائله الإبداعية، هذا إلى جانب ما تحمله هذه الشخصيات من قيم دينية وأخلاقية مثلى، تعكس روح الإسلام و تعاليمه السمحة كالصدق والعدالة والحياء والتسامح والشجاعة والفروسية والشهامة، والحكمة، وكلها مبادئ وقيم تحلت بها عدد من الشخصيات الدينية، كشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وغيرها من الشخصيات التي ضمنت بقائها وخلودها في ذاكرة الأمة، وذاكرة شعرائها الذين عملوا على الاهتمام بصفات الممدوحين وتصويرها.

إن ((توظيف الشخصية التراثية في الشعر العربي المعاصر، يعد أحد أطوار علاقة الشاعر المعاصر بموروثه، هذه العلاقة التي بدأت بالمحاولات الأولى لإحياء التراث في بداية عصر النهضة، ومرت بعدة أطوار حتى انتهت إلى صيغتها الأخيرة وهو توظيف الشخصية التراثية أو التعبير بها)) [2].

هذا وقد تعددت طرق استدعاء الشخصيات التراثية من قبل الشعراء المعاصرين وتنوعت، حسب رؤية كل شاعر وأسلوبه ووسائله عند استدعاء الشخصية المستهدفة، والغرض من استدعائه لها، ومن هنا نرى للشعراء المعاصرين طرقهم المختلفة التي تحكم هذه العملية، وهذا التعاطي وهي كآتي:

- (استدعاء الصفات: أي استدعاء صفة من صفات الشخصية، التي تتناسب

تجربتها، وتجربة الشاعر، حيث يستعير هذه الصفة، ويجعلها محور نصه الشعري.

- استعارة بعض أحداث الشخصية أو مواقفها للتعبير عن دلالات معينة، باستخدام هذه الأحداث أو المواقف.

---

[1] الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، محمد علي كندي (د ط 2003م) دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ص134.

[2] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 15.

- اقتباس بعض أقوالها: ويكون هذا الاقتباس مقصودا، ولا يكون مقصودا لذاته ولاكن لقيمته التراثية الخاصة.) [1].

هذه بعض التقنيات الفنية التي يستخدمها الشاعر، ويتوسل بها عند مقاربته لأي شخصية تراثية، يطمح في الاستعانة بها على إثراء نصه، وإغناء تجاربه ومنحها أصالة وشمولا، وهذا ما يتضح لنا عند تتبعنا لإنتاج الكثير من الشعراء الذين نهجوا هذا النهج، أوسلكوا هذا المسلك عند استدعائهم للشخصيات التراثية، ويأتي في مقدمتها شخصيات الأنبياء عليهم السلام، التي تعد أكثر شخصيات التراث الديني حضورا في شعرنا المعاصر، وذلك بسبب الروابط الوثيقة بين تجاربهم و تجارب الشعراء، حيث يحمل كل منهم رسالة إلى أمته، فإذا كان الرسول أو النبي يحمل رسالة دينية سماوية، فإن الشاعر يحمل أيضا رسالة إنسانية رائعة، لها دورها وأهميتها في المجتمع، ولهذا دأب الشعراء المعاصرون على استدعاء شخصيات الأنبياء والرسل، إلى جانب الشخصيات الدينية الأخرى، التي كان لها أثرها في الحياة في كل عصر، ليعبروا من خلالها عن تجاربهم ومعاناتهم وهمومهم المعاصرة التي أثقلت كاهلهم وأرهقت معيشتهم، وكذلك طرح ما يرونه يخدم مجتمعاتهم وأوطانهم والإنسانية جمعيا من رؤى وأفكار.

وقد أتت شخصية رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، في مقدمة الشخصيات الدينية التي حظيت باهتمام الشعراء، وشغلت حيزا كبيرا في أشعارهم، لما لها من مكانة عظيمة في نفوسهم وقلوبهم، جعلتهم يعكفون على إبراز دورها الكبير في انقاذ البشرية من حالة الضلال التي كانت تعيشها، إلى نور الهداية والحق، وكذلك الإشادة أيضا بما تحلت به هذه الشخصية من كريم الطباع و جميل الصفات التي فرضت نفسها على شعر الشعراء قديما وحديثا. ولعل من أهم القصائد التي لقت صدى عند الشعراء، حتى راح الكثير منهم ينسج على منوالها قصيدة الشاعر كعب بن زهير التي مدح فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي قال في بعض أبياتها

أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِيْ عِنْدَ رَسُوْلُ اللهِ مَأْمُوْلُ
قَدْوأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ مُعْتَذِرًاَلعُذْرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَقْبُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَالقُرْآنِ فِيْهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيْلُ

حتى يقول:

ٍّ رَسُولَ اللهِ نٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ دٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسولُ [2]

[1] ينظر استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 244، 245، 247.

[2] المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيري، صلاح عيد (د ط 2008م) مكتبة الأدب، القاهرة، ص33.

وقد استلهم الإمام البوصيري هذه القصيدة، ونسج على منوالها قصيدته المعروفة بالبردة، والتي يقول في بعض أبياتها، مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم:

.يينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خَلْقٍ مْ يِي عِلْمٍ وَفِي كَرَمِ
وَكُلُّهُم مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنْ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنْ الدِّيَمِ
وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمِ مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةُ الدِّيَمُ (1)

ولم تقتصر قصائد المدح في رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، على عصر من العصور، بل سادت العصور كلها بما فيها العصر الحديث، حيث اتخذت دلالات متنوعة و كثيرة في قصائد شعرائنا المحدثين، وأكثر هذه الدلالات شيوعا هي استخدامها رمزا شاملا للإنسان العربي، سواء في انتصاره أو في عذابه. ففي قصيدة للشاعر العراقي شاذل طاقة، يرمز فيها إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و إلى الانسان العربي المنتظر الذي يخلص الأمة من آلامها وهوانها.

م كُلِّ امْرَأَةٍ مُحَمَّدٍ جَدِيْدٍ
يَمْسَحُ دَمْعَ الثَّاكِلاتِ يَبْعَثُ الحَيَاةَ
فَتُومِضُ البَسْمَةُ فِي الشِّفَاةِ (2)

وإلى جانب ما تقدم سابقا من دلالات للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد شاعت دلالات أخرى في قصائد الشعراء المعاصرين، وهي رمزية الثائر والمتمرد على الظلم والرافض لأشكال الجور والطغيان، والحامل للواء النضال من أجل الحرية والحق والعدل. ففي قصيدة للشاعر كاظم جواد، يصور فيها هذا الدور للمصطفى عليه الصلاة والسلام فيقول:

يَهِيْبُ بِالمُسْتَضْعَفِيْنَ وَحِّدُوا الصُّفُوفِ
فِي جَبْهَةٍ وَاحِدَةٍ وَاسْتَقْبِلُوا الحُتُوفِ
لا تَحْمِلُوا الأَسْلابَ وَالغَنَائِمَ الثِّقَالِ
اتَجْهِضُوا الأَرْحَامَ لا تَسْتَعْبِدُوا الكُهُولَ
لا تَحْرِقُوا الحُقُولَ
نحن رجال الحب والسلام والجمال (3)

(1) المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيري , ص262.
(2) استدعاء االشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 100.
(3) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص 102.

بهذه الصورة وبصور أخرى عبر الشعراء المعاصرون، عن محبتهم وإكبارهم وإجلالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما بدا واضحا في قصائدهم الكثيرة المتنوعة، التي عكست حقيقة مشاعرهم، وصدق أحاسيسهم اتجاه شخصه الكريم.

وإلى جانب رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد استدعى الشعراء شخصية المسيح عليه السلام، والتي أحس الشعراء بأنهم أكثر حرية في التعاطي معها ومن ثم اطلقوا لأنفسهم العنان في تأويل ملامحها وانتحالها لأنفسهم، ومعظم ملامح السيد المسيح في شعرنا المعاصر مستمدة من المورووث المسيحي، وخصوصا ملامح الصلب، والفداء، والحياة من خلال الموت، وهي الثلاثة ملامح مسيحية وعلى هذه الملامح أسقط معظم الشعراء المعاصرين تجاربهم الشعرية، ووظفوها لخدمة أغراضهم، ومن أهمها خاصية الصلب عند المسيح عليه السلام، والتي وجدوا فيها ما يعبرون به عن معاناتهم وآلامهم المعنوية والمادية، بل ذهب البعض منهم إلى تصوير نفسه المسيح على الصليب. فهذا بدر شاكر السياب يقول

في إحدى قصائده بعنوان " غريب على الخليج:

بَيْنَ القُرَى المُتَهَيِّبَاتِ وَالمُدُنْ الغَرِيبَةَ
غَنَّيْتُ تُرْبَتِكَ الحَبِيْبَةَ
فَأَنَا المَسِيْحُ يَجُرُّ فِي المَنْفَى صَلِيْبَةَ
وَمِنْ الشَّخْصِيَاتِ الدِّيْنِيْةَ [1]

وقد استدعي المعاصرون في أشعارهم شخصية النبي أيوب عليه السلام، فهي رمز للصبر على بلاء المولى عز وجل ورضاه بقضاء الله و قدره، وقد وظف الشعراء هذه الدلالة في أشعارهم، للتعبير عن تجاربهم وما يمرون به من محن ومعاناة، في دروب الحياة المختلفة، التي كثيرا ما تتطلب الصبر لتجاوزها، والخروج من عذاباتها. وسيدنا أيوب عليه السلام يعد مثلا يحتذا في هذا الباب، فقد ضاق من الآلام وتجرع من احزان ما تعجز النفس البشرية عن تحمله، ومع هذا صبر واحتسب. ولهذا قال سبحانه وتعالى {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[2] وهذا ثناء من المولى عز وجل عليه، وشهادة له على حسن تقبله لقدر الله، ورضاه به. فكان الفرج من المولى عز وجل والرحمة، وله في الآخرة أعظم الثواب. ولعل هذه الصورة بكل دلالاتها، هي ما دفع الشعراء المعاصرين بأساليب مختلفة لاستلهام

---

[1] المصدر نفسه، ص 104

[2] سورة ص، الآية 44.

هذه الشخصية، ومحاولة التعبير بها عن تجاربهم. ومن ذلك الشاعر شاذل طاقة في مرثية له بعنوان انتصار أيوب:

وَمَضَى أَيُّوبُ فِي مِحْنَتِهِ يَرْقَى إِلَى المَوْتِ جُسُورَا
وَمَدَى الطَّاعُونَ تَفْرِي قَلْبَهُ تَذْرِي البُثُورَا
وَالعَذَارَى يَتَضَرَّعْنَ إِلَى اللهِ:
رَبَّنَا. خَلِّ أَيُّوبَ المُدَمَّى يَعِيشُ
خَلِّهِ وَلْنَسْبَحْنَا الجُيُوشُ
وَمَاتَ أَيُّوبُ وَصَوْتُهُ بَقِيَ بَعْدَهُ يَحْدُو المَرَاكِبَ
وَأَتَى الغَابَةَ المُسْتَبَاحَةَ وَالصُّبْحُ طِفْلٌ
صَوْتُ أَيُّوبَ يَحْدُو
مَوْكِبًا مَا هُنَاكَ يَغُورُ.. وَيَعْلُو [1]

هذه القصيدة قيلت في رثاء الشاعر بدر شاكر السياب، الذي عانى هو الآخر المرض، وتجرع آلامه وأهواله سنين طوال، حتى شبهه الشعراء بأيوب لامتزاجه مع هذه الشخصية في الكثير من قصائده، وخاصة فترة مرضه التي صورها في أشعاره مستلهما في كثير من الأحيان شخصية سيدنا أيوب عليه السلام ومتمثلا لها. وقد عمل الشاعر أحمد الشارف على استدعاء الشخصيات الدينية في بعض قصائده كما كان مع من سبقه ومن عاصره من الشعراء الذين استخدموا هذه التقنية، وعبروا من خلالها عن مشاعرهم وأحاسيسهم. ولعل في وقوفنا على بعض أشعاره ما يجلي هذا الموقف، و يكشف لنا عن كيفية تصويره لمشاعره النبيلة اتجاه هذه الشخصيات الدينية، ويأتي في مقدمتها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم و الذي عبر عن حبه له وتعلقه به قائلا:

بَعَثْتَ اللهَ فِي أَمْرٍ وَفِي بَلَغْتَ مِنَ المُنَى أَقْصَاهُ
فَاللهُ قَدْ بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا لِلْأُمَّةِ وَلْتَهْتَدِي بِهُدَاهُ
لَوْلَاهُ مَا اتَّضَحَ السَّبِيْلُ إِلَى الهُدَى لَوْلَا عَرَفَ الهُدَى لَوْلَاهُ
وَحَبَاهُ بِالخُلْقِ العَظِيْمِ وَحَبَّذَا كَانَ بِالخُلْقِ العَظِيْمِ حَبَاهُ [2]

تتحدث هذه الأبيات الشعرية عن ما حبى الله به رسوله الكريم من مزايا وصفات، يأتي في مقدمتها اختياره لرسالته الهادية إلى الحق والى الطريق المستقيم، طريق عبادته وحده دون سواه، وحث الناس على إتباع هذه الدعوة، لما فيها من صلاح ونجاح في الدارين الدنيا والآخرة. كما تحدثت هذه الأبيات أيضا على ما تحلى به

[1] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي النعاصر، ص 114.
[2] أحمد الشارف ديوان ودراسة، ص 347.

الرسول الكريم من خلق عظيم وهبه له الله دون سائر البشر، وقد اقتبس الشاعر هذا المعنى من قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[1].

وبهذا جاء مدح الشاعر في هذه الأبيات متسقا مع ما جاء به النص القرآني من دلالات ومعاني ومتضمنا لبعض ألفاظه أيضا. ولعل في هذا إشارة إلى حرص الشاعر على مدح الرسول الكريم بما مدحه الله به، وبما أثنى به عليه الله، وكذلك الحث على ضرورة الاقتداء به، والتحلي بأخلاقه وشمائله الكريمة، التي وهبها الله له، فهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، التي على المسلم اتباعها، واتخاذها سلوكا ومنهاجا في حياته. قال المولى عز وجل في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[2] ففي الآية الكريمة إشارة واضحة إلى ما ذهبنا إليه من ضرورة اتباع الرسول الكريم، والتمسك بسنته، وبخلقه الكريم، وقد جاءت الأبيات الشعرية لتأكيد هذه المعاني والقيم وترسيخها في ذهن المتلقي، ليتخذ منها طريقا وسبيلا يهتدي به إلى نور الحق، وإلى الظفر برضى الباري سبحانه وتعالى ومحبة رسوله الكريم.

وإذا كان الشاعر في الأبيات السابقة قد استدعي شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من خلال ذكر اسمه، فقد استدعاه في أبيات أخرى من خلال صفاته، ومنه قوله:

القَوْمُ حَمْلُ سِلاحِهِمْ ... هُوَ السِّلاحُ الأَوَّلُ
وَالاتِّحَادُ سَعَادَةُ الإِسْلامِ فِي ... عَلَيْهِ فِي كُلِّ الأُمُورِ يُعَوَّلُ
الدِّيْنِ ... خُلُقٍ بَلَّغَهُ النَّبِيُّ المُرْسَلُ
... نُورِهِ ... الهُدَى يَتَهَلَّلُ ... بَاتُهُ فِي الخَ ... وَاسِعَةُ المَدَى[3]

تشير هذه الأبيات إلى أن قوة الأمة الاسلامية وعزها ومجدها، لا يكون إلا في وحدتها، وجمع صفوفها، فهو السبيل الوحيد لاسترداد كرامتها، وبلوغ آمالها، وهو ما تحقق في الماضي حين وحد الاسلام هذه الأمة، وقادها رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم، إلى طريق المجد والسؤدد، بتوفيق من ربه، وبفضل شجاعته وحكمته. فما أحوج الأمة الاسلامية اليوم في نظر الشاعر إلى العودة إلى دين ربها، وهدي نبيها، فهما الطريق الوحيد الذي يخرج هذه الأمة من حالة الذل والهوان والانكسار التي تعيشها، وترزح تحت وطأتها.

---

[1] سورة القلم، الآية 4.
[2] سورة الأحزاب، الآية 21.
[3] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 90، 91.

ولعل هذا هو ما دفع الشاعر إلى استحضار تلك الصورة، بما تمثله في نظره من حالة للوحدة والقوة والمنعة، التي غابت في الحاضر الراهن المتردي، وضرورة الخروج منه .

ولا شك أن اختيار الشاعر لهذا الغرض من أغراض الشعر – مدح الرسول – يأتي انطلاقا من محبته العظيمة التي تملأ القلوب، وتغمر النفوس بفيض أنوارها، وعبق أريجها، فتسرع إلى التعبير عن هذا الحب والعمل على تصويره، في أروع الألفاظ وأسمى المعاني. وهذا ما رأيناه عند وقوفنا على هذه الأبيات. وكما كان للشاعر احمد الشارف وقفة حب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت له أيضا وقفات أخرى مع بعض الشخصيات الإسلامية، التي حظيت بجانب من هذا الحب، وقسطا من هذا الإعجاب الذي ظهر بصورة واضحة في بعض القصائد التي صاغها هذا الشاعر.

وإلى جانب شخصية الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم التي استدعاها الشاعر اسما وإشارة، فقد استدعى كذلك سيدنا يعقوب عليه السلام اسما وإشارة كذلك، بل إن استدعاء هذه الشخصية قد تكرر عند الشاعر في أكثر من موضع، مما يلفت الانتباه إلى مدى تعلق الشاعر بهذه الشخصية ارتباطه بها، خاصة في الفترة التي فقد فيها بصره، وفقد فيها أحبته كذلك، فهي فترة عصيبة ذاق فيها الحرمان، وتجرع فيها ألوانه، حين غاب عنه أحبابه، وأعز الناس لديه، ولا يرى الشاعر تجربة تشابه تجربته وتتقاطع معها، إلا تجربة سيدنا يعقوب عليه السلام، فيلجأ إليها ليصور من خلالها حجم معاناته، وعظيم حزنه وألمه. ولهذا نراه يقول في إحدى قصائده:

ن ْ الْبُشْرَ ى لِمَ ـن ْ صَـبَرُ وا ْ عَلَـى ... مْ وَ اللـهُ يَجْـزِ ي مَـن ْ صَـبَرَ
َ فَـةُ الإِ نْسَانُ جـِعَـــ إِلَى ... ـدِ يرَ ةِ لاَ ُ ْ نُوْ رَ بَصَــ َ[1]

فالشاعر يستلهم في هذه الآبيات بأسلوب إشاري، قصة سيدنا يعقوب عليه السلام، وسيدنا يوسف عليه السلام، وتوحي كلمة الصبر المتكررة، إلى مكابدة سيدنا يعقوب عليه السلام، وما لاقاه عند غياب ابنه يوسف عليه السلام، من حزن وألم وحرقة وشوق، طيلة فترة حرمانه منه، وانتظاره له.

فكانت سنوات عصيبة امتحن فيها سيدنا يعقوب عليه السلام أشد امتحان، وابتلي فيها أشد البلاء، حتى فقد بصره من عظيم حزنه، على فراق سيدنا يوسف عليه السلام، غير أن المولى عز وجل كافأ صبره، ورضاه بقدره بتبشيره بقرب عودة ابنه إليه، قال الله تعالى: ... الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ

(1) أحمد الشارف دراسة وديوان، 54.

} قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ {94} فَلَمَّا أَنْ جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {95}(1) ولم تمض فترة من الزمن حتى جمع الله شمل سيدنا يعقوب عليه السلام بابنه.

والشاعر يحاول من خلال استدعاء هذه الشخصية، واستلهامه لتجربتها، أن يجد فيها العزاء لنفســه، التي حرمت هي الأخرى، وقاست ما قاســت من آلام، لم تر لها دواء إلا الصبر، تأسيا بسيدنا يعقوب عليه السلام، وطمعا في رضا الله، وعظيم ثوابه، وفي شخصية سيدنا يعقوب عليه السلام ترى المثل والقدوة.

وكما كان للشاعر وقفات شعرية مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر في شعره جبريل عليه السلام، ودوره في نزوله بالوحي على المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الكريم، وهو ما رآه الشاعر مدعاة للفخر يجب الاشادة به، والتحدث عنه، ولهذا نراه يقول:

بَنِي قَحْطَانِ أَشْرَفَ ذِمَّةً بِهَا يَوْمَ التَّفَاخُرِ قَحْطَانُ
نُقَابِلُ بِالحُسْنَى وَلَسْنَا بِمَعْشَرٍ إِذَا نَصَحُوا غَشُّوا وَإِذَا عَاهَدُوا أَخَانُوا
وَنَحْنُ الأُلَى فِيهِمْ بِغُرَّةِ هَاشِمٍ تَرَدَّدَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ القُرْآنَ
بَنِي الغَبْرَاءَ فَضْلاً وَمِنَّةً بِهِمْ شَأْنًا إِذَا عَظُمَ الشَأْنُ (2)

فالشاعر في هذا الموضع من شعره، كما في مواضع أخرى، نراه يفخر بوطنه، ويعتز بنسبه العربي، وإن كان الشاعر في هذا التوجه لا يختلف كثيرا عن غيره من الشعراء، إلا أن معاصرته للكثير من الأحداث والمحن التي مر بها الوطن العربي بشكل عام، ووطنه ليبيا بشكل خاص، قد دفعت به إلى هذه الصرخة، في وجه مستعمر داس على مقدرات هذه الأمة وعلى مقدساتها بعنجهية وعنصـرية واستبداد، فكان رده على هذا المستعمر بأنه من أمة لها نسبها الذي تفاخر به الأمم وتباهي بها الشعوب، كيف لا وهي الأمة العربية التي اختار منها المولى عز وجل آخر أنبيائه ورسله، محمد صلى الله عليه وسلم، وأهبط عليه وحيه بجبريل الأمين عليه السلام، الذى تردد عليه بالقرآن الكريم، وهذا شرف عظيم اختص به المولى سبحانه وتعالى أمة العرب دون سائر الأمم، كما أنها أمة اتصفت إلى جانب كرم أصلها، كرم أخلاقها وطباعها، من شجاعة وشهامة وصدق ووفاء بالعهد، وهذه كلها قيم نبيلة أراد الشاعر التأكيد عليها ردا على مستعمرها. ثم التوجه إلى الأمة نفسها لتذكيرها بماضيها وحثها على ضرورة استنهاض هممها، وشحذ عزائمها لمواجهة عدوها ودحره، واسترداد ما كان لها من ماض مجيد، وتاريخ مشرف. هذه هي الرسائل التي

(1) سورة يوسف، الآيات من 94 – 96.
(2) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 264.

أراد الشاعر إيصالها إلى المتلقي، عن طريق استدعائه لشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولجبريل عليه السلام أولا. ثم التذكير بنسب هذه الأمة وبماضيها وما اتصفت به.

ومن الشخصيات التي تحدث عنها الشاعر أحمد الشارف، في سياق حديثه عن الشخصيات الدينية شخصية ابن أدهم، فقد تحدث عنه هو الآخر، في إطار حديثه عن بعض الظواهر السلبية في المجتمع ومنها هذه الظاهرة التي يتناولها في قوله:

لِلْصَاغِي فَتًى مُتَصَوْفًا ـًّ ـفَ ـافًا بِهَا يَتَمَذْهَبُ
وَمَا هِيَّ أَوْصَافُ السُّلُوكِ حَقِيقَةً لَكِنَّهَا أَشْرَاكُهُ لَكَ تَنْصِبُ
إِذَا كَانَ لِلْصُوفِي زُهْدُ ابْنُ أَدْهَمٍ فَمَا بَالَهُ فِيمَا لَدَى النَّاسُ أَشْعَبُ
وَمَا الذِّكْرُ وَالتَّسْبِيْحُ مِنْهُ بِصَادِقٍ لَكِنَّهُ صُنْعٌ بِهِ يَتَطَلَّبُ [1]

تدور هذه الأبيات وتتمحور حول سلوك ذميم قد يسلكه الإنسان، أو يتخلق به، ألا وهو النفاق، فالنفاق آفة من الآفات التي تصيب النفس البشرية، وتدفع بها إلى طريق التهلكة،ولهذا حاربها الله ورسوله سواء من خلال الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية الشريفة، التي تحدثت جميعا عن ضرورة نبذ هذا الخلق الذميم وضرورة محاربته، ولعل هذه الأبيات الشعرية تعد أحد الأدوات والوسائل التي تبناها الشاعر في مواجهة مثل هذا السلوك ونقده، وهذا ما نلمسه من قراءتنا للأبيات وتحليلنا لها.

فالأبيات تتحدث عن إحدى الشخصيات التي ادعت التصوف، وحرصت على إظهار ما يدل عليه من خلال الشكل وحتى بعض السلوك. ولكن الشاعر يرى في هذا التصرف نوعا من النفاق والخداع، الذي يحاول من خلاله هذا الشخص، الاحتيال على الناس، لتحقيق أغراضه وأطماعه ومصالحه، وهذا ليس من طباع المتصوفين ولا من أخلاقهم وسلوكهم، لما عرف عنهم من تقوى وصلاح وزهد. وقد ذكر الشاعر في هذا السياق ابن أدهم الصوفي المعروف بورعه وزهده ليضرب به المثل، وليكون محل مقارنة مع هذا المدعي، الذي لبس ثوب التصوف والزهد رياء وسمعة، ووسيلة للتكسب والعيش والوصول إلى غاياته. وهذا خلافا لما جاء به الدين، وأقره الشرع. لكن الشاعر استدعى شخصية دينية صوفية عرفت بالزهد ليضرب بها المثل في التقوى والورع، والإعراض عن الدنيا حبا في الآخرة، وفي جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. فمن هي هذه الشخصية؟ انها شخصية ابن أدهم: ((وهو إبراهيم ابن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبواسحاق. زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ. تفقه في الدين ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثيرمن علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل

[1] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 264.

والحصاد وحراسة البساتين والحمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم، وجاء الى المصيصة من أرض كيليكيا و كان ينطق بالعربية الفصحى ولا يلحن، وإذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ أوجز في كلامه مخافة أن يزل. والأرجح أنه مات ودفن في سفتن وهي حصن من بلاد الروم كما في تاريخ ابن عساكر))[1] من خلال هذه النبذة الموجزة عن هذه الشخصية، نرى مدى تفقهها في الدين وكدها المضني للحصول على علومه، وكذلك ممارستها للكثير من الأعمال الشاقة في سبيل الحصول على لقمة العيش، وهو ما يدل على سلوكها طريق الأنبياء والأتقياء والصالحين في الحياة. هذا إضافة إلى نظرتها إلى الحياة بعين الزاهد فيها

وفي زخرفها، وهذا ما جعل منها شخصية ضرب بها المثل في التقوى والصلاح والورع، الأمر الذي دفع شاعرنا ليتخذ منها نموذجا يحتج به على من يدعـي هذه القيم رياء وسمعة وتقربا من الناس، وطمعا في مآثرهم وعطائهم خلافا لما عرف عن أهل الزهد والتصوف من هذه الأمة. وهو ما أراد الشاعر تأكيده من خلال هذه الأبيات.

ومن الشخصيات الدينية الأخرى التي تحدث عنها الشاعر، شخصية الشيخ عبد السلام الأسمر وهي شخصية دينية معروفة ومشهورة في ليبيا وفي خارجها، بل هي علم من الأعلام التي تحدثت عنها كتب الفقه و السير والجهاد والتاريخ الليبي، واحتلت مكانة عالية ومرموقة في قلوبهم وفي عقولهم قديما وحديثا.

(ولد عبد السلام الأسمر بن سليم بن محمد بن حميد بن عمران ابن محيا بن سليمان بن سالم بن خليفة بن نبيل السعيدي المغربي المخزومي القرشي، العالم المجذوب في حب الله تعالى.

ولد ببلدة " زليتن " بغرب ليبيا في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 880هـ،

وتوفى والده وهو ابن سنتين وشهرين، فكفلته أمه، وتولى عمه أحمد بن محمد بن محمد الفيتوري شئونه. حفظ القرآن وأخذ عن عمه مبادئ الفقه والنحو والتوحيد والمنطق وغيرها من العلوم الشرعية، فهو أول أستاذ تتلمذ على يديه. ثم قرأ على يد الشيخ الوسلاني، والأستاذ الشيخ أحمد الزروق، والشيخ الدكالي وعنه أخذ التصوف، وقرأ على يديه "المختصر والرسالة وفقه الامام الأشعري في علم التوحيد) [2] كما أخذ عن الكثير من العلماء منهم عبد الحميد اليربوعي والشيخ محمد بن علي السملفي، والشيخ عبد الحميد ضوء الهلال، والشيخ ابراهيم عمر القريو وغيرهم.

عاش الشيخ عبد السلام الأسمر حياة زهد وعبادة وعلم، ودعوة إلى طاعة الله وتوحيده، والحرص على رضائه، ولهذا كانت له وصية في الحث على العلم والتعلم

[1]- الأعلام خير الدين الزركلي , (د ط 1995م) دار العلم للملايين , بيروت , ص 31 .
1- ينظر أعلام ليبيا , الطاهر الزاوي (د ط 2004م) دار الكتب الوطنية , بنغازي , ليبيا , ص 222 .

والعبادة والإكثار من ذكر الله، والاشتغال بما فيه صلاح الدنيا والآخرة. وله مؤلفات عدة منها " العظمة في التحدث بالنعمة والأنوار السنية في أسانيد الطريق العروسية والتحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية ونصيحة المريدين في الأولياء والصالحين. وقد نهبت أكثر مؤلفاته وضاعت، عندما نهبت زاويته في فتنة قتل ابنه عمران سنة 995هـ.

توفي الشيخ عبد السلام الأسمر في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة 981هـ، ودفن بمدينة " زليتن " عليه رحمة الله ورضوانه) [1].

هذه هي الشخصية الدينية التي ورد ذكرها في أشعار أحمد الشارف، في أكثر من موقع، إما بإسمها، وإما بصفاتها، وهو دليل على تعلق الشاعر به وحبه له، والمكانة التي يحظى بها في قلبه. فمن الأبيات الشعرية التى ذكرت فيها هذه الشخصية، قول الشاعر:

إِلَى زَلِيتَنْ لِتَنَالَ مِنْ دَعَيْتُ لزِّيَارَةِ بِالمَقَامِ الأَكْبَرُ
يفٍ وَمِمَّزَادَهَا حُمَى عَبْدُ السَّلاَمِ الأَسْرُ [2]

هذان البيتان يتحدثان عن مناسبة من المناسبات الوطنية، التي أقيمت بمدينة " زليتن " بمناسبة زيارة هيئة التحرير الوطنية إلى هذه المدينة، حيث أقيم حفل كبير حضره الكثير من الشخصيات السياسية الوطنية في ذلك التاريخ، وقد أراد الشاعر من قصيدته هذه توثيق تلك المناسبة، وتدوينها في أشعاره، استشعارا منه بأهميتها و برمزيتها. غير أن هذه الزيارة وإن كانت تشريفا للمدينة ولأهلها، فإنها تشريف في المقام الأول لهيئة التحرير نفسها، التي حظيت بشرف زيارة مقام الشيخ عبد السلام الأسمر، هذا الشيخ الجليل الذي كان مقصدا للكثير من الزوار من داخل ليبيا وخارجها، تذكرا منهم وتأملا وعظة وعبرة، بما عرف عنه من صلاح وتقوى وزهد وورع، كرس حياته لها، حتى صارت منهاجا يحتذى لمن أراد خير الدنيا والآخرة. فاستدعاء هذه الشخصية من قبل الشاعر في هذا المقام، أتت في سياق لفت الانتباه إلى أهمية هذه الشخصية، وإلى ما تحتله من مكانة دينية واجتماعية في القلوب، رأى فيها الشاعر أنها تستحق الذكر والإشادة بها في وقت وحين.

وكما استدعى الشاعر شخصيات دينية، لها مكانتها وقربها من قلوب الناس ونفوسهم، فقد استدعى شخصيات أخرى كانت على مدى التاريخ محل رفض واستهجان، بسبب سلوكها والطريق الذي انتهجته في علاقتها بربها، مما أبعدها عن رضاه، وعن رضى الناس عامة. فمن هذه الشخصيات المنبوذة شخصية " قارون "

(1) أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي , ص 222، 223.
(2) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 117.

التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فهي شخصية قابلت نعم الله عليها بالإنكار والجحود، ونسب كل ما وهبها لها الله إلى علمها، وإلى جهدها.

قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}[1]

ففي الآيات الكريمة ذكر لنعم الله على قارون، وما وهبه له من الأموال والعطايا، ما عجزت عن حمل مفاتيح خزائنه، وكان في غاية السعادة والفرح، وقد نصحه قومه بمقابلة النعمة بالشكر والإحسان كما أحسن الله إليه، والبعد عن الفساد في الأرض.

فماذا كان رده؟ قال المولى عز وجل على لسانه: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}[2] بهذا الانكار الصارخ، وهذا الجحود المذموم، قابل هارون نعمة ربه عليه، فكان مصيره الهلاك كمصير الأمم التي سبقته، من الطغاة والجبابرة المنكرين لنعم الله وأفضاله عليهم، فقال تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ}[3].

وقد عمد الشاعر أحمد الشارف إلى استدعاء هذه الشخصية، واستثمار مضامينها الفكرية والدينية في بعض قصائده حيث قال:

مَعَنَّ بِحَظٍّ مِنْ هَيْبَةٍ وَجَلَالِ
فَكُلُّ مَا فِيكَ عَيْبٌ مَا دَامَ جَيْبُكَ خَالِ
لَوْ كُنْتَ قَارُونَ قَوْلًا لَكُنْتَ مَوْلَى الْمَوَالِي
وَهَكَذَا كُلَّ يَوْمٍ تَبْدِي صُرُوفَ اللَّيَالِي
فَكُنْ مَعَ الدَّهْرِ سَهْلًا كَأَمْ لَمْ يُوَالِ
وَلِلضَّرُورَاتِ حُكْمٌ يُذْفِي صِفَاتُ الْكَمَالِ [4]

هذه الأبيات الشعرية حاول الشاعر من خلالها، أن يعبر عن حال الدنيا، وعن تبدل أحوالها، وأن الدوام على حال واحد، ليس من طبيعتها ولا من سننها، فهي دائمة التغير والتحول في كل شيء، بدءا من أحوال الناس المعيشية، إلى علاقاتهم الأسرية والاجتماعية، بل حتى بعلاقاتهم الغرامية تخضع لهذا الناموس الكوني. والشاعر رأى أن يربط بين ما طرأ على قارون من تغير وتبدل في حياته، من غنى إلى فقر ومن سعادة إلى تعاسة، وبين ما جرى عليه في علاقته بأحبته ومجتمعه، من إنكار له

(1) سورة القصص، الآية 76.
(2) سورة القصص , الآية 78.
(3) المصدر نفسه ، الآية 81.
(4) أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 181.

وجحود، وعزوف عنه وعن علاقته بهم، فالرابط بين الحالتين كما رأى الشاعر، هو هذا الانقلاب الذي طرأ على كليهما، والاشتراك معا في ما آلت إليه حياة كليهما، من حزن بعد فرح، وألم بعد مسرة، طبعا مع تباين ظروف هذا الانقلاب وأسبابه. فإذا كان تبدل أحوال قارون ترجع إلى إنكاره وجحوده لنعم الله عليه، فإن عزوف أحبته عنه، وتغير الناس عليه ناجم عن تبدل أحواله الاقتصادية والصحية، وفقدانه لمكانته الوظيفية، وإن كان تركيزه كان بصورة أكبر على الجانب المادي، فقد رأى فيه الأكثر تأثيرا في حياة الناس، وفي علاقاتهم الاجتماعية، بل هو من يمنح المكانة والرفعة والاحترام بين الناس وبغيره يفقد الانسان كل هذه المزايا، ويصبح كعامة الناس لا يلتفت إليه أحد، ولا يعيره أحد اهتماما. وبما أن التبدل والتغير واختلاف الأحوال وعدم ديمومتها هي من صفات الدنيا الأزلية، فقد رأى الشاعر أن على الانسان أن يرضى بنصيبه، وبما قسمه الله له وما كتبه عليه، لينعم براحة البال والضمير، وبمحبة المولى عز وجل، وهي خير النعم.

ومن الشخصيات المنبوذة التي استدعاها الشاعر، وأتى على ذكرها في أشعاره شخصية إبليس الذي حلت عليه لعنة الله لمخالفته أمره وعصيانه له، فكانت سببا في طرده له من رحمته وإذا كانت هذه صورته عند الكثير من الشعراء عبر عصور مختلفة، فإن للشعراء المحدثين صورة مخالفة لذلك ((حيث وجدت هذه الشخصية لونا من تعاطف الأدباء في العصر الحديث، وخصوصا الأدباء الرومانتيكين، حيث احتضنوا و اعتبروا تمردها كتعبيرعن النزعة إلى الحرية، وكان رائد الرومانتيكين في التعبير عن تمرد الشيطان، هو الشاعر الانجليزي ((ملتون)) في "الفردوس المفقود" الذي كان بطله الأول الشيطان، وقد تغنى الشاعر بنزعته إلى الحرية وتفرده. وقد تأثر الومانتيكيون جميعا بصورة الشيطان عند " ملتون " حيث صوروه بصورة الثائر الذي نبذ قسرا من عالم الخير فاضطر إلى احتراف الشر، وممن تبنى هذه الصورة من الأدباء الرومانتيكين أيضا بيرون وألفريد دي فيني، وفيكتورهيجو وسواهم))[1].

ولكن برغم هذه الصورة الايجابية التي حاول رسمها بعض الشعراء لإبليس، فإنه يظل في نظرنا وفي نظر الكثير من الشعراء المعاصرين، الصورة التي رسمها له البارئ عز وجل في كتابه العزيز حيث قال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ

[1] الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال (د ط 1962م) دار الأنجلو، مصر، ص 213.

وَ خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ {76} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ {77} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }[1] .

قد عمل الشاعر على توظيف ما حملته هذه الشخصية من دلالات على عصيان الخالق سبحانه وتعالى، ومن جحود ونكران للحق، وبما تعهد به من غواية للإنسان للسير في طريق الضلال، والبعد عن ما فيه فلاحه في الدنيا والآخرة في قول الشاعر:

هَـذِهِ الـدُّنْيَا ثَـلاَثٌ تَغْلَبَـتْ هَـا جَـاهٌ وَ مَـالٌ وَ مَنْصِـبٌ

فَمَالَـكَ فَتَّـانٌ وَ إِبْلِـيْسُ عَوَابِنَفْسَكَ تَهْوَى وَ الهَوَى بِكَ يَلْعَبُ [2]

وبالنظر إلى هذه الأبيات نرى الشاعر قد اختار وصف إبليس بالعابث. وهي صفة تدل على خلق الفوضى في حياة الإنسان، والتلاعب به وبسلوكه وطريقة حياته، وهو بالتأكيد يجره إلى الانحراف عن الجادة، وعن طريق الصواب الذي اختاره له الباري سبحانه وتعالى.

فالجاه والمنصب والمال كلها غايات ومطامح قد يدركها الإنسان، ولكن كيف يدركها؟ هل يدركها بالطرق الموافقة للشرع والأخلاق والقيم الإنسانية النبيلة، أم يغويه إبليس ويدفعه إلى غير ذلك من الوسائل المنافية لما ذكرنا من مبادئ الحق والخير والعدل.

هذا ما أراد الشاعر إيضاحه وتصويره من خلال أبياته السابقة، وهو يصف ابليس بما عرف عنه سواء من خلال القرآن الكريم، أو الأحاديث النبوية الشريفة.

[1] سورة ص، الآيات من 75 - 78.
[2] أحمد الشارف دراسة وديوان، ص 264.